

الأستاذ/ سودة العمري

التربية الموسيقية في الجزائر بين التنظيم البيداغوجي والتكامل المؤسساتي

تعريف الموسيقى

من الناحية اللغوية، يسند لفظ موسيقى إلى اليونان، آخذين ذلك عن الإغريق الذين يسمون كل ما هو فن (موسيقى)، كانت لهذه الكلمة أوسع معنى لدى الروم القدماء الذين أطلقوا على كل معبودة من المعبودات التسع كلمة (موسا Mossa)، وهي مشتقة من (موسثيه Mossthé) المقصود بها الملهم، ثم أضيفت إليها (يقى) للدلالة على النسبة إلى الاسم الملحق، انتقل المصطلح إلى باقي الأمم لينطق به حسب الخصوصيات اللغوية لكل مجتمع⁽¹⁾. أما كنفوشيوس Confucius (479 - 551 ق.م الذي يعتبر من أكبر وأوائل المربين الصينيين، فقد قال: «استمدت الموسيقى قوانينها من السماء، وهي تجعل الإنسان في علاقة مع عالم الأرواح، تحدد ترتيب الأشياء، تربط بين السماء والأرض، تقضي على التضاد وعدم التوافق بين الكلمات»⁽²⁾.

إن الموسيقى والجبر والحساب والهندسة والمنطق والعروض، هي كلها أنواع من جنس (العلم الموزون). الموسيقى علم وفن، علم كونها من العلوم الطبيعية المبنية على القواعد الرياضية، ويتجلى ذلك في ترتيب وتعاقب الأصوات المختلفة في الدرجة، بحيث يكون تركيبها مستسيغا للأذن. فن كونها تعتمد على علم العزف على الآلات الموسيقية والغناء بموجب الأوزان الموسيقية الزمنية، التي تجعل اللحن مؤلفاً من عبارات موسيقية متساوية في أزمنتها⁽³⁾.

1. الحلو، 2007/2006، ص 13.

2. Rio, 1830, p38.

3. الحلو، 1972، ص 12.



هناك عدد كبير من التعاريف تناولت موضوع الموسيقى لا يمكن حصرها، لذا ارتأينا أن نعطي للموسيقى تعريف أكثر شمولية وهو كالتالي:

الموسيقى ظاهرة صوتية فنية، تتحكم فيها قواعد علمية دقيقة، يحترمها الممارس بإحساسه حتى وإن لم يدركها بفكره، فإحساسنا بدقة القوانين الطبيعية والفنية التي تضبط العناصر الموسيقية من أصوات وإيقاعات وغيرها ليس بحكرٍ على الموسيقي، إنما يشعر بها أكثرية الناس، كلٌّ حسب مستوى ذوقه لهذا الفن وخبرته فيه، والموسيقى وسيلة تعبير عن المشاعر والأحاسيس، تؤثر على المستمع بشكل قد يختلف باختلاف الأشخاص والألحان والحالات النفسية والمزاجية للأفراد... وتأثيرها لا يختص فقط الإنسان بل حتى على الحيوانات والنباتات.

تعريف التربية الموسيقية

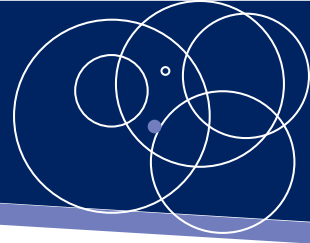
التربية الموسيقية مادة كثيرًا ما يختلف مفهومها من مجتمع إلى آخر، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى، لهذا نجد لهذه المادة تعريف عديدة ومتعددة نحاول ذكر أهمها فيما يلي:

1. **التربية الموسيقية** هي التدريس الخاص بفن تنظيم وتركيب الأصوات، بحسب اللحن، الإيقاع، التوافقات (الهارموني)، طابع الأصوات (Timbre)، المجال الصوتي، الأشكال الموسيقية... ذلك عن طريق الاستماع، الأداء، والإبداع الصوتي والآلي⁽¹⁾.
2. **التربية الموسيقية** هي ذلك التدريس الذي يعطي التلميذ الفرصة في أن يعيش تجارب موسيقية عديدة، بهدف أن نثير لديه ردود أفعال عاطفية ومعرفية⁽²⁾.
3. **التربية الموسيقية** هي التدريس الذي يعمل على تنمية مهارات التلميذ في مجمل مجالاتها، وتشمل هذه المادة كل من: التربية الحسية - الارتجال والإبداع - التواصل الاجتماعي، وهو التعريف المعتمد في النظام التربوي بلوكسمبورغ⁽³⁾.

1. Le cadre théorique de l'éducation musicale en France, 2001, p 07.

2. Ministère de l'éducation en Québec, p 119.

3. Majeres, p 14 - 16, 1999.



4. التربية الموسيقية هي التطور المنسجم والحركي لحمل الإمكانات الموسيقية للشخص، هذه الإمكانات يمكن تحديدها في قدرات الابتكار، التعبير، التذوق...، التربية الموسيقية تركز على الفهم والتمكن من العمليات الموسيقية الأساسية، الانفتاح على التنوع في الممارسات الموسيقية، المعرفة التي لها امتداد تاريخي وثقافي، وكذا المقاربة الشخصية المستقلة للموسيقى...⁽¹⁾ وذكرت كذلك BOUCHARD-VALENTINE مجموعة من التعاريف للتربية الموسيقية وهي كالتالي:

5. «التربية الموسيقية هي عملية مساعدة الآخرين في تنمية إمكاناتهم الموسيقية»⁽²⁾.
6. «التربية الموسيقية تشمل كل الجهود المستمرة من أجل تعلم الموسيقى»⁽³⁾.
7. «التربية الموسيقية هي مجموع العمليات التعليمية التعليمية في الموسيقى، التي تندرج في إطار خاص، متنوع، ومتطور سواء في الأهداف أو التنظيم أو المحتويات»⁽⁴⁾.
8. «التربية الموسيقية تتكون من مختلف درجات التفاعل بين التلميذ والمعلم، فالطالب يسعى في أن يكون مثل المعلم في قدراته وفهمه»⁽⁵⁾⁽⁶⁾.

نعرف إذن التربية الموسيقية أنها ذلك الفعل التربوي التعليمي الذي يقوم من خلاله التلميذ بممارسة نشاطات الموسيقى المتمثلة أساساً في الاستماع، الغناء، الحركات الإيقاعية، الإبداع والابتكار، الألعاب الموسيقية ودراسة بعض القواعد والنظريات الموسيقية الأساسية، ذلك بهدف تمكينه من أن يكون قادراً على التعبير عن أحاسيسه ومشاعره عن طريق الموسيقى، وأن يكون له قدر كافي من المعارف والقدرات وكذا الكفاءات الفنية التي تمكنه من فهم وإدراك ثم توظيف أهم العناصر الموسيقية في ممارساته وتعلمته.

1. BOUCHARD-VALENTINE, 2007, pp 103 - 104.

2. Knieter, 1991, p 94.

3. Leonhard, 1988, p185.

4. Mialaret, 2000, p 359.

5. Colwell, 1987, p 43.

6. BOUCHARD-VALENTINE, 2007, p 120.



مقدمة

احتلت التربية الموسيقية مكانة جعلتها من أبرز نشاطات مجال التربية لدى الدول المتقدمة، ذلك لما تلبه للتلاميذ من رغبات، فهم يجدون فيها متعة وراحة نفسية بعد التعب والإرهاق، كما تبعث فيهم روح النشاط والحيوية للتغلب على الملل والإرهاق. الموسيقى مثلها مثل الرياضة، من أبرز النشاطات الصفية والآصفية التي يميل إليها التلاميذ بحض إرادتهم، بل إذا كانت الرياضة من النشاطات التي يميل إليها الذكور أكثر من الإناث فالموسيقى تجمع بين الجنسين.

قال أفلاطون: «إن الاختبار علمنا أن نؤسس تهذيب الناشئين على تعليمهم الموسيقى، فالتربية البدنية للجسد والتربية الموسيقية للعقل، وقال: إني أؤثر الابتداء بتهذيب النشء بالموسيقى، فالجسد على أية حال كان في غير مكانة أن يجعل النفس صالحة، أما النفس فإذا كانت صالحة فهي بفضيلتها تجعل الجسد كاملاً قدر الإمكان، لذلك يجب أن نعالج أولاً العقل بالموسيقى ثم نفوض إليه المعالجة المختصة بالجسد»⁽¹⁾.

من هنا نستنتج أن أفلاطون كان يولي للتربية الموسيقية أهمية كبيرة، لماذا لا والموسيقى ليست فقط هدفاً بل وسيلة تربوية تساهم في تربية الطفل، فهي تنمي عنصرين أساسيين في الاتصال الاجتماعي وهما جهاز السمع والنطق وعنصرين أساسيين في التعلم ألا وهما الذاكرة (سواءً الصوتية منها كما في الغناء والعزف أو البصرية كما في القراءة الصولفائية التي تربط بإحكام دقيق بين ما تعبر عنه أشكال ورموز اللغة الموسيقية ودقة أدائها الذي لا يحتمل أدنى خطأ) وعنصر آخر ألا وهو الذكاء (ذلك عن طريق ما تحمله الموسيقى من قوانين رياضية وفيزيائية تخضع لها، فهي لا تقبل التأويل مهما كان الاختلاف في أساليب وقوالب التلحين التي لا تعد ولا تحصى)، زد إلى ذلك الحس الجمالي والذوق الرفيع اللذان يجعلان الفرد يتذوق ما هو جميل وينفر مما هو رديء سواءً من هذا الفن أو غيره.

لن نتمتع في تناول موضوع أهمية التربية الموسيقية خلال هذا الموضوع بل سوف نخصص له مقالات أخرى كون المجال له من الأهمية البالغة، مما لا يكفيننا تناوله خلال هذا المقال.

1. الحلو، 2006-2007، ص 101.

هدف الموضوع

يهدف هذا الموضوع أساساً إلى الإجابة عن السؤال التالي:

لماذا تعاني الساحة الفنية الجزائرية من قلة الأجيال (الفرق) الموسيقية المحترفة كما في الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية (العالمية) ؟ ولإجابة عن ذلك طرحنا سؤال آخر ألا وهو: هل مؤسسات التربية والتكوين الموسيقي بالجزائر بتنظيمها وأسلوبها الحاليين في التربية والتكوين قادرة على إعطاء التربية الموسيقية ببلادنا بعدها ومدلولها التكويني والتربوي؟

واقع التربية الموسيقية بمؤسساتنا

رغم ما نلحده من مؤسسات تكوينية وتربوية في ميدان الموسيقى إلا أن نتائجها تعتبر سلبية مقارنة بما يجب أن يكون عليه الوضع الفني الاحترافي في هذا المجال. فإذا قارنا مستوى الجزائر بدول عربية نجد أننا بعيدين عما يجب أن نكون عليه، فنلاحظ في هذا النوع الموسيقي مثلاً أي الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية التي أصبحت تلقب بالعالمية أن مستوانا ضعيفا مقارنة بما هو عليه الحال بتلك الدول، إضافة إلى أن عدد الفرق والعازفين في الجزائر جد محدود، بل تكاد تكون نفس العناصر في نفس الفرق والمتغير هو اسم الفرقة أو المناسبة أو قائد الجوق الذي قد يكون أجنبي.

الاحتكاك بالأجانب ليس سلباً بل ضروري، لكنه شرط أن يكون التبادل في اتجاهين. لقد أصبحنا اليوم نسترد عازفين أجانب للقيام ببعض الاستعراضات المناسباتية التي تكلف أكثر مما يمكن إنفاقه في تكوين أجيال من الموسيقيين المحترفين خلال السنوات القادمة، خاصة وأن الأطفال الجزائريين لهم من الاستعدادات القبلية ما يمكنهم أن يكونوا في مستوى عالي وعالمي في شتى الميادين، وتجربتي في تدريس الموسيقى لهذه الفئة سواء في مؤسسات الشباب أو معاهد الموسيقى... مكنتني في أن ألمس بل أتأكد من ذلك، وقد يعود ذلك إلى الثراء الموسيقي الجزائري الذي يتربى عليه أطفالنا، لكنه وللأسف تضيع تلك العبقريات مع مرور الزمن كون أن المتابعة شبه معدومة.

إن التكوين الموسيقي اليوم تحكمه الاحترافية ولا مجال فيه للارتجال، فالمقاييس أصبحت عالمية، وتسويق الإنتاج الموسيقي الراقي أصبح سهلاً، مما يجعل الدول التي ليس لها الكفاءات والرصيد من هذه الاحترافية في موضع المستهلك فقط.

كثيراً ما نتغنى بالتراث الموسيقي الجزائري ونفتخر به وهو جميل، لكن الكتابات الصحفية حول هذا الموضوع أرى أنها بعيدة عن الواقعية في تقييمها الإيجابي لما هو عليه حال هذا الميدان، كون أنها لو قارنت مستوى العازفين والملحنين والمغنين من الخمسينيات إلى السبعينيات من القرن الماضي والسنوات الأخيرة نجد أننا في تراجع ملحوظ، فاليوم نفتقد إلى من يُدرّس آلات موسيقية عرفت مكانة هامة لدى ذلك الجيل من الموسيقيين، بل هناك من الآلات التي اختفت على الساحة الفنية لتعوض بآلة (Le synthétiseur) والتي أفقدت الصوت طابعه (Le timbre) وكذا (Boîtes à Rythmes) التي جعلت من الإيقاعات حركات دورية منتظمة وثابتة لا مكان فيها لأحاسيس العازفين، والمعروف أن العازف مهما أعاد نفس الأداء في كل الآلات إلا أنه يغير ويرتجل حسب حالته المزاجية التي هي وليدة تلك اللحظات، وهو ما لا يتوفر في تلك الآلات الإلكترونية.

إن تراثنا حقيقة غني، بل يمكن اعتباره من الأغنى في العالم بتنوعاته المختلفة، فالذي يسمع الموسيقى الأندلسية ثم الشاوي ثم القبائلي ثم الترقى والأمثلة أكبر مما ذكر، أو يستمع إلى الإيقاعات التي لا تعد ولا تحصى في مختلف مناطق الجزائر يقول أن موسيقانا ليس لها حدود، فالجزائر بطابعها الجغرافي الاستراتيجي المطل على حضارات عدة يعرف فيها أبعاد إفريقية، عربية شرقية، أوروبية، أمريكية لاتينية، إضافة إلى خصائص خاصة بها.

التراث الموسيقي ليس فقط إرث نتغنى به، بل إنتاج يُستغل في شتى المجالات، فهو تاريخ وحضارة وهوية بل شخصية المجتمع، إضافة إلى هذا أنه عامل اقتصادي خاصة في السياحة، بل أصبح صناعة قائمة بذاتها.

أردت الوقوف هنا على مدى مساهمة ميدان التربية والتكوين الموسيقي بين جانبه التنظيمي والبيداغوجي والمؤسسي مقارنة بما تتطلبه التربية الموسيقية من تخطيط وتنظيم وتكامل يوصل إلى الهدف المنشود.

ليس من السهل بلوغ أهداف التربية الموسيقية إلا إذا اعتمدنا في تدريسها على أساليب محكمة تعتمد على مبادئ تتمثل أساساً فيما يلي:

1. لا بد أن يمارس الطفل الموسيقى في السنوات الأولى من عمره، أي السنة الثالثة أو الرابعة على الأقل، كون أن الاستعدادات والقدرات الموسيقية تظهر في تلك السنوات، فإذا لم نتمكن من تنميتها في وقتها فإنه يشكل لديه تأخر قد لا يمكن تداركه فيما بعد. للتربية الموسيقية في هذا السن خصوصيات، فهي تعتبر يقظة موسيقية (Éveil musical)، يعتمد في هذا السن على ممارسة الطفل للإيقاع بأبسط أشكال التعبير كالتصفيق أو المشي أو الدق على بعض الآلات الإيقاعية البسيطة والمنجزة خصيصاً لذلك كما هو في آلات أورف (Carl Orff).



تمؤفج من آلات كارل أورف

إضافة إلى الإيقاعات هناك الغناء الذي يعتبر من أهم نشاطات التربية الموسيقية، فالصوت ينمي بالاستماع والغناء كما تنمي العضلات بالغذاء والرياضة، يقول في هذا الصدد البيداغوجي المجري زولطان كودالي Zoltan KODALY أن الصوت (الحنجرة) هي الآلة الموسيقية الأقرب إلى الإنسان ويمتلكها الجميع، لذلك اعتمد هذا البيداغوجي على الغناء في التربية الموسيقية قبل كل شيء.

2. الاعتماد على أسلوب في التدريس أساسه الممارسة الفعلية لهذا الفن، فكثيراً من الأحيان ما نجعل من التربية الموسيقية تدريس غير مجدي، نتوجه فيه إلى التلميذ بأساليب نعتمد فيها على الجانب النظري أكثر من التطبيقي، فالموسيقى ترتبط بقدرات حس حركية يجب أن تنمي في وقتها، ثم يمكن بعدها تمكين التلميذ من تدوين أو تقنين عناصر الموسيقى حسب ما تفر ضه اللغة الموسيقية من إشارات وقوانين وضعية، فالتلميذ وهو في سن السادسة مثلاً كثيراً ما يمتلك قدرات

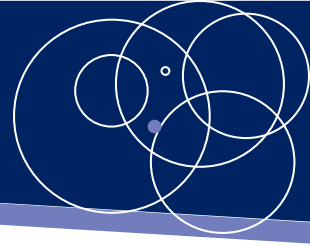
موسيقية تفوق تلك الخلايا الإيقاعية البسيطة التي تعرض عليه في أشكال العلامات الموسيقية (♩ ♪ ♫)، بل له من القدرات ما يمكنه أن يؤدي إيقاعات جد معقدة، لذا فالأولى أن نمي تلك القدرات وألا نجعله يتراجع في مستوى أدائه.

3. أن نعتد في التربية الموسيقية على أسلوب تكاملي محكم، فلا يمكن أن نؤكد على جانب من جوانب هذا الفن دون الآخر، كأن نهتم بالكتابة والقراءة الموسيقية دون الغناء أو العزف أو الاستماع... ويقول في هذا الصدد الموسيقار والبيداغوجي الألماني كارل أورف Carl Orff (1895 - 1982) أنه لا بد أن يكون التكوين الموسيقي متكامل وألاً يتشتت، كون أن الموسيقى بكل عناصرها وحدة كاملة إذا ضعف جزء منها ضعف الكل، فإذا أردنا تكوين مغني فلا بد من تنمية قدراته في الاستماع، القراءة والكتابة الموسيقية، الأداء الإيقاعي المحكم، العزف الذي يدقق نغمات صوته (L'intonation) إضافة إلى الثقافة الموسيقية التي تساهم في ترقية ذوقه وإحساسه وكذا أدائه... .

4. أن نعتد على أسلوب في التقويم يمس كل أبعاد التربية الموسيقية، وأن تكون معايير واضحة لا تقبل التأويل، والتقويم هنا يمكن تقسيمه إلى جانبين أولهما كيفي يخص نتائج التربية الموسيقية التي يجب أن تظهر كمهارات يتمكن منها التلميذ، وآخر كمي يخص مردود المؤسسات التربوية والتكوينية التي لا بد من تقييمها بموضوعية، كون أن مردود المؤسسات الجزائية في هذا الميدان كما سبق ذكره جد محدود مقارنة بما يجب أن يكون عليه الوضع.

سنحاول تسليط الضوء على واقع مؤسسات التكوين والتربية الموسيقية بالجزائر للوقوف على مدى نجاعتها، ذلك بالاعتماد على تقييم تُستمد معاييرها مما سبق ذكره في مبادئ التربية والتكوين الموسيقي.

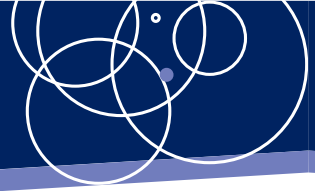
كان لفريق البحث المتخصص في التربية الموسيقية بقسم الموسيقى والعلوم الموسيقية - المدرسة العليا للأساتذة بالقبة، الجزائر - دور في تسليط الضوء على هذا الميدان، فباعتدانا على جانب من تقرير البحث لسنة 2008 والذي تكفلت به شخصياً، أين تم تناول واقع مؤسسات التربية



الموسيقية بالجزائر، سواءً منها المتخصصة بالتكوين الموسيقي أو التي يمارس فيها تدريس الموسيقى كمادة أساسية أو ثانوية دون أن تتخصص في هذا التكوين، زد إلى ذلك المؤسسات التي تُمارس فيها الموسيقى كنشاط ثقافي ترفيهي خلال الأوقات الحرة للأطفال أو الشباب. كُلفت بهذا الموضوع كوني مارست التدريس في مختلف المؤسسات (مؤسسات الشباب، المعاهد الموسيقية، المدرسة العليا للأساتذة، مؤسسات التربية...) وقد كانت لي تجربة معتبرة في هذه الأوساط. كان الهدف وراء هذا الجانب من العمل هو التعرف على واقع هذه المؤسسات والعلاقة التكوينية التي تربط بعضها البعض بغية الوقوف على مدى التنسيق فيما بينها. أردت خلال هذا العمل الإجابة على سؤال وانشغال له بليغ الأثر في ميدان التربية الموسيقية ببلادنا، وهو: هل مؤسسات التربية والتكوين الموسيقي بالجزائر بتنظيمها الحالي قادرة على إعطاء التربية الموسيقية ببلادنا بعدها ومدلولها التكويني والتربوي؟ وهو تقييم لهذه المؤسسات إن كانت قادرة على تكوين موسيقيين بقدرات وكفاءات تُمكنهم من ممارسة هذا الفن بأحسن وجه، وكذا مدى مساهمتها في ترقية التراث الموسيقي في الجزائر إلى مستوى باقي التراث الموسيقي العالمي خاصة الذي أصبح يُتداول في معظم أنحاء العالم، كالموسيقى الكلاسيكية الأوروبية التي أصبحت مرجع أساسي للتكوين الموسيقي الأكاديمي أو موسيقى الجاز...، علماً أن الموسيقى إلى جانب أنها فن أصبحت اليوم اقتصاداً وصناعة، يتطلب استغلالها توفر مهارات جد متطورة وفي ميادين عدة نذكر منها:

1. العزف على الآلات الموسيقية بالمهارة العالية؛
2. التمكن من الغناء وفق ما تفرضه تقنيات هذا الفن؛
3. التلحين الراقي والتوزيع المحكم؛
4. النشر؛
5. البحث العلمي في جميع جوانب هذا الفن ونذكر منها تاريخ الموسيقى وبالأخص الموسيقى الجزائرية، البيداغوجية وتعليمية هذا الفن في جميع مستويات التدريس؛

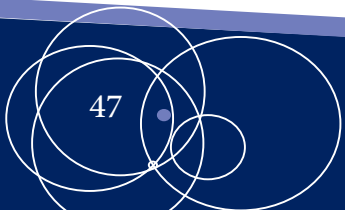




6. تدوين وتقنين التراث الموسيقي الجزائري؛
7. التنسيق المحكم بين الشركاء الذين لهم دور في هذا الميدان، كالمؤسسات التربوية، مؤسسات التكوين في الموسيقى، الجامعات ومعاهد البحث، السينما، التلفزيون، الإذاعات السمعية...
توصلت في هذا البحث إلى تحديد مؤسسات التربية والتكوين الموسيقي في الجزائر، والتي نقسمها إلى ثلاثة فئات بحسب اختصاصات كل منها.
تمثل الفئة الأولى في المؤسسات المتخصصة بالتكوين الموسيقي، أين يتحصل فيها المتخرج على شهادة معترف بها لدى الوظيف العمومي الجزائري، مما يؤهله للالتحاق بوظيفة في هذا الميدان، والفئة الثانية هي تلك المؤسسات التي تدرّس فيها الموسيقى كمادة أساسية أو ثانوية ويتحصل فيها المتخرج على شهادة معترف بها تؤهله للالتحاق بوظيفة لكنها ليست في اختصاص الموسيقى، أما الفئة الثالثة والأخيرة فهي تلك المؤسسات التي تمارس فيها الموسيقى كنشاط ثقافي ترفيهي، وهي مؤسسات غير مؤهلة لمنح شهادات تمكن المتخرج من الحصول على وظيفة، إلا أن لها دور كبير في إعطاء الأطفال أو الشباب فرصة تطوير قدراتهم وكفاءاتهم في ميدان فن الموسيقى، وتتمثل هذه المؤسسات فيما يلي:

 1. مؤسسات التكوين المتخصصة في الموسيقى: منها المدرسة العليا للأساتذة بالقبة (ENS)، المعهد العالي للموسيقى (INSM) بالعاصمة، المعاهد الجهوية للموسيقى (IRFM)، المعاهد البلدية للموسيقى والمسرح (Conservatoires).
 2. مؤسسات التكوين الغير متخصصة في الموسيقى: منها المعاهد العليا للتكوين العالي لإطارات الشباب (INFSCJ)، المعهد العالي لمهن الفن والمهرجانات (ISMAS)، المعاهد الوطنية لتكوين مستخدمي التربية وتحسين مستواهم، المؤسسات التربوية (الطور الابتدائي، المتوسط والثانوي).
 3. مؤسسات الثقافة والترفيه: منها روض الأطفال، دور الشباب، المراكز الثقافية، الجمعيات خاصة الأندلسية، مراكز قضاء العطل الصيفية... .

أدركنا خلال هذا العمل أن مؤسسات التكوين والتربية الموسيقية ليست بالمستوى التنظيمي والتكاملي الذي يجعلها قادرة على تأدية مهامها التكوينية في ميدان الموسيقى بما يتطلبه هذا الفن،



أي ما يمكن الموسيقي من تطوير قدراته وكفاءاته بمختلف التخصصات، مما يسمح له بالاستثمار في هذا الميدان كما هو في المجتمعات المتقدمة. ما يجب الإشارة إليه أن الوصول بكفاءات عازف آلة موسيقية إلى مستوى يمكنه من الانضمام إلى أوركسترا سيمفونية يتطلب تكوين متواصل لا تقل مدته عن 15 سنة، زد على ذلك أن يمارس العازف الآلة الموسيقية منذ الصغر، وهو ما تؤكد التربية الحديثة التي تؤكد أن العمر الذي يجب على الطفل ممارسة الموسيقى هو 04 سنوات أو أقل. إن هذا الاستنتاج راجع إلى عدم التناسق في ما توفره المؤسسات السالفة الذكر من تكوين للتلاميذ أو الطلبة.

إن اليابان الذي يمكن اعتباره مثال للنجاح في ميدان التربية الموسيقية كانت الكلمة الأولى في سياسة التربية الموسيقية تعود للبيداغوجيين المتخصصين في هذا الميدان وعلى رأسهم الدكتور شنشي سوزوكي (Shinichi SUZUKI 1898 - 1998)، فقد كان مبدئه هو إعطاء الفرصة لجميع الأطفال قصد تنمية قدراتهم الموسيقية، ذلك منذ سن الثالثة أو الرابعة من عمرهم. لكن ما يمارس في الجزائر غير مطابق لهذه البيداغوجية بل غير واضح الآفاق، فلاحظنا خلال هذا العمل أن تدريس الموسيقى للفئة الصغرى من التلاميذ أي ما يسمى بالفطنة الموسيقية (L'éveil musical) ليس لها مكانة في مؤسسات التربية والتكوين الموسيقي، بل تم الاهتمام بالمعاهد والمعاهد العليا قبل الاهتمام بالتكوين الابتدائي، ففي اليابان دائماً كان إنشاء أول معهد متخصص في البحث التربوي للمتفوقين سنة 1978 على يد سوزوكي نفسه وقد كان ذلك بعدما عمم التربية الموسيقية في جميع أنحاء البلاد، فقد وصل إلى تكوين فرقة من التلاميذ العازفين تضم 1200 طفل، أما الجزائر، ففي سنة 2003 مثلاً تم إقرار إنشاء المعاهد التالية:

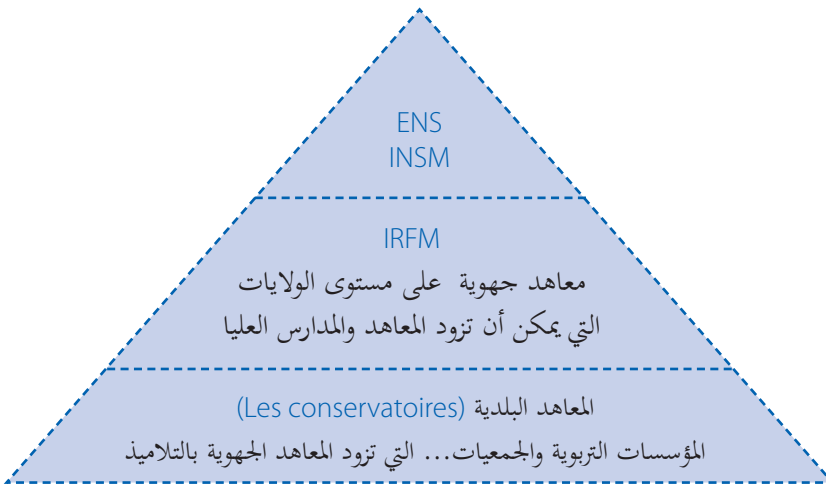
- بشار، غليزان وتلمسان ملاحق للمعهد الجهوي بوهران.
- الأغواط وبجاية ملاحق للمعهد الجهوي بالبويرة.
- تيبازة ملحق المعهد الجهوي للجزائر العاصمة.
- عنابة وقسنطينة ملاحق للمعهد الجهوي بباتنة.

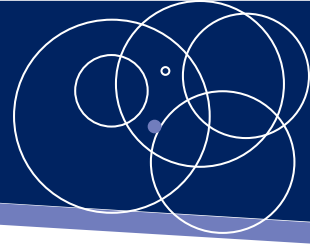
فالمجموع هو 12 معهد، منها التي فتحت ومنها التي لم تفتح بعد، بل منها التي فتحت ثم توقفت

عن العمل بعد سنوات قليلة، ويعود السبب أساسا إلى قلة المكونين. أما المعاهد البلدية المتخصصة في الموسيقى والرقص والفنون الدرامية (Les conservatoires) فلم تنشئ معاهد أخرى ماعدا التي ورثناها من الحقبة الاستعمارية أو بعض البنايات التي لم تشيد لهذا الغرض بل حولت فقط إلى ملاحق لهذه المعاهد كما هو في الجزائر العاصمة، والغريب في الأمر أن بعض هذه المؤسسات أغلقت أبوابها، بل تم إزالة بعضها في وسط السنة الدراسية دون سابق إنذار للتلاميذ أو الأولياء، كما أغلقت بعضها لسنوات عدة وأذكر على سبيل المثال معهد الحراش.

خلاصة

إن التكوين الموسيقي في بلادنا لا يحظى بالاهتمام اللازم، كون أننا لا نعطي الفرصة لأطفالنا كي يتكونوا في هذا الفن منذ الصغر، فالطفل الجزائري جد موهوب وقادر على فرض نفسه بمستوى ينافس به غيره من أطفال العالم، وهو ما لاحظته خلال تدريسي الموسيقى للأطفال الصغار، أين تعاملت مع تلاميذ كانت لهم قدرات موسيقية خارقة، يكفي أن نعطي لهم إمكانية تطوير وتنمية تلك القدرات لترقى إلى مستوى الكفاءات سواء في العزف أو التلحين أو الغناء... إن الاهتمام بالقمة قبل القاعدة في التكوين غير مجدي، وهو ما تعانيه الجزائر، حيث أنها اهتمت بتكوين الفئة الكبرى قبل الصغرى، أي أن الهرم عوض أي يوضع على القاعدة كما يوضحه الشكل التالي وضع على قمته.





فالتكفل بالقاعدة يعطي لنا فرصة تطوير قدرات التلاميذ في السنوات الأولى من عمرهم أي قبل فوات الأوان من جهة، ومن جهة ثانية تمكنا من تكوين ذخيرة للمؤسسات التكوينية في المستوى المتوسط والعالي، هذا لتفادي الشرخ الذي تعانيه هذه المؤسسات فيما بينها كما هو الحال بالنسبة للمدرسة العليا للأساتذة بالقبة، والتي تستقبل طلبة ليس لهم أدنى مستوى من التكوين في هذا الميدان، وفي كثير من الأحيان لا يملكون حتى الاستعدادات القبلية للموسيقى، كالصوت والأذن الموسيقية ولا الرغبة في دراسة هذا الفن، فكيف يمكنهم أن يتكفوا خاصة في ظروف بيداغوجية وتنظيمية لا تسمح بأداء هذا الفن وفق ما تتطلبه خصوصيات المادة، رغم أنهم مطالبون بأداء مهنة تدريس الموسيقى التي تتطلب قدرة اكتشاف الأستاذ لأخطاء التلاميذ ثم تصحيحها بما يمتلكه من كفاءات، وما هو ملاحظ أن عدداً كبيراً من الطلبة يتخرجون وهم يعانون مشاكل عدة، لها علاقة خاصة بالأذن والذاكرة الموسيقية والأداء الغنائي والعزف على الآلات الموسيقية الضرورية... إن ما يمكن قوله في الأخير أن التربية والتكوين في ميدان الموسيقى لا بد له من تخطيط محكم، فمؤسسات التربية والتكوين عليها أن تعمل بتوافق تام يضمن إعطاء هذا الفن بعده التربوي والفني والعلمي في نفس الوقت. لا بد أن نهتم بالتلميذ أولاً، ذلك بإعطائه فرصة تنمية قدراته الكامنة في هذا الفن خاصة في السنوات الأولى من عمره، وأفضل ما يمكن تقديمه لأطفالنا هو أن نهتم بالتربية الموسيقية في روض الأطفال أي قبل التمدرس ثم المدارس الابتدائية، أين تكتشف المواهب لتوجه خلال المستويات المتقدمة من التدريس (المتوسط، الثانوي والجامعي وكذا المعاهد المتخصصة في هذا الميدان)، فالحمل يجب أن يكون متكامل ومتواصل أي دون انقطاع، لأن الموسيقى فن يتميز بدقة تتطلب مهارات لا بد أن تتوفر في الموسيقي لا يمكن تحقيقها إلا عبر سنوات طويلة من التربية والتكوين، وبالتقويم المحكم والفعال.

المراجع

- سليم الحلو، تاريخ الموسيقى الشرقية، 321 ص، دار مكتبة الحياة، 2006 - 2007.
- الجمع العربي للموسيقى، جامعة الدول العربية، البحث الموسيقي، البحث العلمي في الموسيقى العربية، المجلد الخامس - العدد الأول، 123 ص، 2006.



- عبد الفتاح نجلة، العلاج النفسي بالموسيقى، عن علماء الكتب، 120ص، 2006.
- آمال أحمد مختار صادق، بحوث ودراسات في سيكولوجية الموسيقى والتربية الموسيقية، مكتبة الأنجلو المصرية، (900ص)، 2007، مصر.

- Cristina, Agosti-Gherban, *L'éveil musical, une pédagogie évolutive*, édition L'harmattan, collection: Sciences de l'éducation musicale, 2000.
- Damour, Brunett et Elmart, *Etudes élémentaires de la musique*, Bureau des études élémentaires de la musique, 90 rue de la harpe, (711p), 1838,
- Journal officiel de la république algérienne démocratique et populaire. Fait à Alger, le 25 Rajab 1424 correspondant au 22 septembre 2003.
- Marc VIGNAL, *Dictionnaire de la musique*, collection Extensio, Larousse-Bordas, (2080p), 196.
- J, RIBIERE-RAVERLAT, *L'éducation musicale en Hongrie*, édi: Alphonse Leduc, Paris, (132p), 1967.
- Rio, A.F. (1830). *Essai sur l'histoire de l'esprit humain dans l'antiquité*. France : éd Alexandre Mesnier.
- Cadre théorique du Programme d'éducation musicale, document théorique révisé en 2001. France.
- Majeres, N. (1999). *L'influence de la musique sur l'être humain et la gestion de la manifestation des troubles de comportement extériorisés en classe : Essai de mise en relation et répertoire de techniques*. Mémoire de fin d'étude. Université de SHERBROOKE. Canada.
- BOUCHARD-VALENTINE, V. (2007). *L'éducation musicale scolaire contemporaine : vers un modèle axiologique*. Thèse de doctorat, Université de Québec, Canada.